استخلاف الإمام علي (ع) عن النبي (ص) في غزوة تبوك

<"xml encoding="UTF-8?>

تبوك هي أقصى منطقة توجّه إليها النبيّ (صلى الله عليه وآله) في حروبه . وبدأت تحرّكات المنافقين في المدينة في وقت راح رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعدّ جيشه للانطلاق إلى تبوك .

والحوادث التي وقعت تدلّ بوضوح على أنّ المنافقين في المدينة كانوا يتحيّنون الفرصة لتوجيه ضربتهم للحكومة النبويّة الجديدة . وكانت هذه الغيبة الطويلة للنبيّ فرصة مناسبة لهم . من هنا ، نلحظ أنّه (صلى الله عليه وآله) استخلف في البداية محمّد بن مسلمة على المدينة ، ثمّ جعل عليّاً (عليه السلام) عليها ، وقال : " أنا لابدّ من أن أُقيم أو تقيم " (1) .

وقال : " إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك " (2) .

وهكذا أخفقت المؤامرة ، فإنّ وجود عليّ (عليه السلام) ألقى الرعب في قلوب المنافقين والمتآمرين ، وآيسهم من القيام بأيّ تحرّك في المدينة ، فراحوا يعزفون على وتر آخر ؛ فإنّ غزوة تبوك كانت الغزوة الوحيدة التي لم يشهدها أمير المؤمنين (عليه السلام) بقرار النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، ولما طرأ من أحداث في المدينة (3) . فأرجفوا أنّ عليّاً تخلّى عن الحرب وخذل النبيّ ولم يرافقه مع رغبة النبيّ في حضوره معه . فما كان من الإمام (عليه السلام) إلاّ أن هرع إليه (صلى الله عليه وآله) قبل مغادرته ، وأخبره بأراجيفهم ، فنطق النبيّ (صلى الله عليه وآله) عندئذ كلمته الخالدة العظيمة في حقّه : " أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي " (4) .

وهكذا أُحبطت هذه المؤامرة في مهدها ، وسجّل التاريخ لعليٍّ (عليه السلام) أسطع المناقب أمام أنظار الناس .

1 – الطبقات الكبرى عن البراء بن عازب وزيد بن أرقم : لمّا كان عند غزوة جيش العسرة وهي تبوك ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعليّ بن أبي طالب : إنّه لابدّ من أن أُقيم أو تقيم ، فخلّفه ، فلمّا فصل رسول الله (صلى الله عليه وآله) غازياً قال ناس : ما خلّف عليّاً إلاّ لشيء كرهه منه .

فبلغ ذلك عليّاً ، فاتّبع رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى انتهى إليه ، فقال له : ما جاء بك يا عليّ ؟ ! قال : لا يا رسول الله إلاّ أنّي سمعت ناساً يزعمون أنّك إنّما خلّفتني لشيء كرهته منّي ! ! فتضاحك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال : يا عليّ ، أما ترضى أن تكون منّي كهارون من موسى غير أنّك لست بنبيّ ؟ ! قال : بلى يا رسول الله ، قال : فإنّه كذلك (5) .

2 – تاريخ الطبري عن ابن إسحاق – في خروج النبيّ (صلى الله عليه وآله) إلى غزوة تبوك : خلّف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّ بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة أخا بني غفّار ، فأرجف المنافقون بعليّ بن أبي طالب ، وقالوا : ما خلّفه إلاّ استثقالاً له ، وتخفّفاً منه .

فلمّا قال ذلك المنافقون أخذ عليّ سلاحه ، ثمّ خرج حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو بالجرف ، فقال : يا نبيّ الله ، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني أنّك استثقلتني وتخفّفت منّي ! فقال : كذبوا ، ولكنّي إنّما خلّفتك لما ورائي ، فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ؟ ! فرجع عليّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله) على سفره (6) .

3 – الإرشاد – في غزوة تبوك : أوحى الله تبارك وتعالى اسمه إلى نبيّه (صلى الله عليه وآله) أن يسير إليها بنفسه ، ويستنفر الناس للخروج معه ، وأعلمه أنّه لا يحتاج فيها إلى حرب ، ولا يُمنى بقتال عدوّ ، وأنّ الأُمور تنقاد له بغير سيف ، وتَعبّده بامتحان أصحابه بالخروج معه واختبارهم ، ليتميّزوا بذلك وتظهر سرائرهم .

فاستنفرهم النبيّ (صلى الله عليه وآله) إلى بلاد الروم ، وقد أينعت ثمارهم ، واشتدّ القيظ عليهم ، فأبطأ أكثرهم عن طاعته ؛ رغبةً في العاجل ، وحرصاً على المعيشة وإصلاحها ، وخوفاً من شدّة القيظ ، وبُعد المسافة ، ولقاء العدوّ . ثمّ نهض بعضهم على استثقال للنهوض ، وتخلّف آخرون .

ولمّا أراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) الخروج استخلف أمير المؤمنين (عليه السلام) في أهله وولده وأزواجه ومهاجره ، وقال له : " يا عليّ ، إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك " ؛ وذلك أنّه (عليه السلام) علم من خبث نيّات الأعراب ، وكثير من أهل مكّة ومن حولها ممّن غزاهم وسفك دماءهم ، فأشفق أن يطلبوا المدينة عند نأيِه عنها وحصوله ببلاد الروم أو نحوها ، فمتى لم يكن فيها من يقوم مقامه ، لم يؤمن من مَعَرَّتهم (7) ، وإيقاع الفساد في دار هجرته ، والتخطّي إلى ما يشين أهله ومخلّفيه .

وعلم (عليه السلام) أنّه لا يقوم مقامه في إرهاب العدوّ وحراسة دار الهجرة وحياطة من فيها إلاّ أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فاستخلفه استخلافاً ظاهراً ، ونصّ عليه بالإمامة من بعده نصّاً جليّاً .

وذلك فيما تظاهرت به الرواية أنّ أهل النفاق لمّا علموا باستخلاف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً (عليه السلام) على المدينة حسدوه لذلك ، وعظم عليهم مقامه فيها بعد خروجه ، وعلموا أنّها تنحرس به ، ولا يكون للعدوّ فيها مطمع ، فساءهم ذلك ، وكانوا يؤثرون خروجه معه ؛ لما يرجونه من وقوع الفساد والاختلاط عند نأي النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن المدينة ، وخلوّها من مرهوب مخوف يحرسها . وغبطوه (عليه السلام) على الرفاهيّة والدعة بمقامه في أهله ، وتكلُّف من خرج منهم المشاقّ بالسفر والخطر .

فأرجفوا به (عليه السلام) ، وقالوا : لم يستخلفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إكراماً له وإجلالاً ومودّة ، وإنّما خلّفه استثقالاً له . فبهتوه بهذا الإرجاف كبهت قريش للنبيّ (صلى الله عليه وآله) بالجِنّة تارة ، وبالشعر أُخرى ، وبالسحر مرّة ، وبالكهانة أُخرى ، وهم يعلمون ضدّ ذلك ونقيضه ، كما علم المنافقون ضدّ ما أرجفوا به على أمير المؤمنين (عليه السلام) وخلافه ، وأنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان أخصّ الناس بأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وكان هو أحبّ الناس إليه ، وأسعدهم عنده ، وأفضلهم لديه .

فلمّا بلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) إرجاف المنافقين به ، أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم ، فلحق بالنبيّ (صلى الله عليه وآله) ، فقال : يا رسول الله ، إنّ المنافقين يزعمون أنّك إنّما خلّفتني استثقالاً ومقتاً ! فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : ارجع يا أخي إلى مكانك ، فإنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك ، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ! ! (8)

---

(1) المعجم الكبير : 5 / 203 / 5094 ، الطبقات الكبرى : 3 / 24 .

(2) الإرشاد : 1 / 155 ، كمال الدين : 278 / 25 ، الاحتجاج : 1 / 346 / 56 ، كنز الفوائد : 2 / 181 ؛ المستدرك على الصحيحين : 2 / 368 / 3294 .

(3) الطبقات الكبرى : 3 / 23 ، أُسد الغابة : 4 / 92 / 3789 .

(4) خصائص أمير المؤمنين للنسائي : 107 / 45 ، المصنّف لابن أبي شيبة : 8 / 562 / 4 ، تاريخ الطبري : 3 / 104 ، أنساب الأشراف : 2 / 348 ، الاستيعاب : 3 / 201 / 1875 .

(5) الطبقات الكبرى : 3 / 24 ، أنساب الأشراف : 2 / 349 ، المعجم الكبير : 5 / 203 / 5094 نحوه وراجع خصائص أمير المؤمنين للنسائي : 106 / 45 .

(6) تاريخ الطبري : 3 / 103 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 4 / 163 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 631 ، الكامل في التاريخ : 1 / 636 .

(7) المَعَرَّة : الجناية ، والأذى (لسان العرب : 4 / 556) .

(8) الإرشاد : 1 / 154 .